محمد عمر حمادة

(١٣٦٧ -) هـ (١٩٤٨ -)م

لاجئ من فلسطين

أبيّن لمحة من سيرتي في هذه الصفحات باعتباري مؤلفاً لهذه الموسوعة (موسوعة أعلام فلسطين)، ولأنني شاهد عيان عما اصاب ذويّ وأهلي وشعبي العربي الفلسطيني من ظلم وتعدٍ وإجرام وإبادة لم يحدث مثيل لها في تاريخ أي شعب مقيم على أرض أجداده.

هُجّر الشعب الفلسطيني من فلسطينه الأرض، السماء، الماء، الهواء، البحر، السهل، الجبل. مرابع الصبا، والبيت والمدرسة، والتاريخ والتراث، ومثوى الآباء والأجداد. وكل ما يعنيه الوطن. اصبح شعبي لاجئاً في كل مكان، حيث التشرد والذل والهوان والغربة، وهذه أمور لا يدركها إلاّ من يعانيها، فكلمة لاجئ في معناها اللغوي لا تعني الإهانة والمذلة صراحة، ولكنها تعني في واقع الحياة، الإنسان الذي فقد وطنه، ومن لا وطن له لا كرامة له، لأنه غريب في كل شيء، في حياته المعنوية والمادية، ولن تنتهي مآسيه إلا بعودة فلسطين إلى اصحابها الحقيقيين.

ولدت بتاريخ ٢٩/٣/من عام ١٩٤٨ في قرية إجزم القريبة من مدينة حيفا.

تعود عائلتي بأصولها إلى مدينة ام الفحم. جاء مؤسس العائلة من مدينة ام الفحم إلى مدينة حيفا قبل أكثر من قرنين من الزمان، وتكاثرت العائلة في مدينة حيفا، وتفرعت إلى عائلات عديده. منها (طميش - الحاج إبراهيم - الديك ـ حموده - حماده) وتبدأ تسمية عائلتنا بلقب حماده من والد جدي (محمد طميش) الذي ذهب إلى قرية إجزم حيث أنشأ مخبزاً، وأقام في القرية، وتزوج من عائشة الزيدان، فأطلق عليه أبناء القرية اسم (حماده) تحبباً، فاصبح اسمه محمد حمادة طميش، أنجب ولدين هما حسين وحسن، وتوفي حماده صغيراً، فعاش الطفلان في كنف أخوالهم من بيت الزيدان، وعُرفا بابناء حماده، ومن هنا التصق لقب حماده بالعائلة، وفي سجلات العائلة، وشهادات الميلاد الموجودة لديّ فإن اسم والدي هو (عمر بن حسين حماده طميش).

تزوج جدي الحاج حسين حماده الآنسة صفاء عبد الحليم أبو الرب من قرية إجزم، وعاد إلى مدينة حيفا حيث أنشأ بيتاً في جبل الكرمل ، وعمل في تجارة الفحم وتصنيعه وتوزيعه في مدن فلسطين، وأقام مركزاً تجارياً لهذه الغاية في ساحة الجرينة في مدينة حيفا، وبقي هذا المركز في حوزة والدي عمر حسين حماده حتى الهجرة

القسرية عام ١٩٤٨ حينما اغتصبه الصهاينة ككل فلسطين.

أنجب الحاج حسين ستة اولاد، علي - عمر - صدقي - عثمان - أحمد - يوسف. تزوج والدي عمر السيدة عربية حسن الأسعد من قرية إجزم، ويذكر ان نسبها يعود إلى الدوحة النبوية الشريفة، وأن أصل العائلة من مدينة غزه، ولعائلة الأسعد أقارب في مدينة غزة وبئر السبع.

عمل والدي بتجارة الفحم مع والده، إلا أنه استقل بهذا العمل بعد فترة، ذلك أن جدي الحاج حسين كان من مستقبلي الشيخ المجاهد عز الدين القسام الذي جاء إلى حيفا، ودعاه للإقامة في بيته، وعمل معه مجاهداً في منطقة حيفا، وتم اعتقاله مرات عديدة من قبل سلطات الانتداب الانكليزي، وبقي في ساحات الجهاد حتى وقوع النكبة الفلسطينية عام ١٩٤٨ (انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة).

أنجبت والدتي شقيقي حسين، وله العديد من المؤلفات التاريخية والتربوية (انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة) ثم أنجبتني، وأنجبت ثمان بنات،أنهين دراستهن الجامعية في مجالات العلم المتنوعة كالهندسة وطب الأسنان والعلوم الطبيعية والجيولوجية والآداب. ولي أخوان من والدي هما رامي وصافي.

كانت عائلتنا تعيش في حيفا حياتها العادية، ولكن هذه الحياة تغيرت حينما بدأت العصابات الصهيونية بالسيطرة على مدينة حيفا وطرد سكانها، فالتجأت والدتي إلى قرية إجزم حيث يعيش أهلها بانتظار العودة إلى حيفا، أما أبي فقد بقي مع المجاهدين داخل المدينة، وبعد سقوط حيفا اتجه نحو لبنان، و لم يعد يعرف شيئاً عن أخبار زوجته وأولاده.

وتوسعت العصابات الصهيونية باغتصاب القرى الفلسطينية فحاصرت قرية إجزم ثلاثة أشهر، ولكنها لم تستسلم فقامت بقصفها بكل أنواع الأسلحة الفتاكة، ودمرت البيوت فوق ساكنيها، فتشرد السكان في الجبال والهضاب والأودية، حفاة عراة، ويتذكر شقيقي حسين وهو ابن السنوات الأربع كيف التجأ سكان القرية إلى الجبال، والأشواك التي أدمت قدميه الغضتين الصغيرتين خلال فرارهم من القرية، ومما يذكر ما حدث لوالدتي خلال الهجرة، وما تحملته من مشاق الهجرة، فقد حدثتني رحمها الله أنها كانت تحمل أخي على يدها اليمنى، وتحملني على يدها اليسرى، وتقود الدابة التي تحمل أمها بحبل تشده باصابعها، وحدث ان توقفت الدابة وافترشت الأرض، وهنا وقعت والدتي بحيرة وارتباك ، فكيف لها ان تتابع الطريق بولديها وأمها المريضة التي لا تقوى على السير، فاشار عليها أحدهم بالتخلص مني لأنني صغير، كي تستطيع المتابعة بأخي وأمها، ولكنها رفضت، وأصرت على المُضي بنا، فأنزلت أخي على الأرض ليمشي على قدميه العاريتين الغضتين، لتمسك أمها بيدها اليمنى وتحملني باليسرى. استمرت العائلة في هجرتها وغربتها حتى وصلت إلى سوريا حيث أقامت في مدينة

دمشق،والدي في لبنان وأمي في دمشق، وكلٌ منهما يبحث عن الآخر، وكانت الإذاعات العربية تبث نداءات الضائعين فسمع والدي بوجودنا في دمشق، فالتم شمل العائلة المشردة الضائعة. كان والدي يملك مبلغاً من المال ، فاستأجر بيتاً في منطقة السبكي وهي منطقة راقية، متوقعاً العودة إلى حيفا بعد فترة قليلة، لكن الغربة طالت، ونفدت النقود، و لم يعد يملك مالاً لدفع أجرة البيت، فعرضت صاحبة البيت عرضاً بالتنازل عن البيت مقابل تنازل والدي عني، إذ أن صاحبة البيت ثرية تملك عدة عمارات، ولا أبناء لها، فاستهجنت والدتي هذا العرض، وقررت الخروج من البيت، فأقامت العائلة في غرفة مظلمة من غرف جامع سوق الخياطين قرب سوق مدحت باشا.

كان والدي رحمه الله عصبي المزاج، فأثر ذلك في صحته، وتمزقت شبكية عينيه، وفقد البصر لمدة عامين، فقامت والدتي رحمها الله بإعالة العائلة، فاستأجرت ماكينة خياطة، وبدأت بخياطة الأثواب والقمصان الداخلية بأجر زهيد، وبقيت على هذا الحال حتى عاد النور إلى عيني والدي بعد علاج طويل بإشراف الدكتور عمر الخليل (من أصدقاء الوالد من مدينة حيفا)، وتعلم الوالد تفصيل القمصان والبيجامات، وساعد الوالدة في عملها، ثم استأجر محلاً في شارع غسان من منطقة الحريقة (سيدي عامود سابقاً)، وأنشأ فيه معملاً صغيراً لصناعة القمصان، ثم انتقلت عائلتنا إلى بيت في شارع الأمين، وكانت الوالدة تقوم بخياطة القمصان. كنت في هذا الوقت في الصف الأول الإبتدائي، وبدأت في هذه السن حياتي العملية، فكنت أحمل كيس القمصان المفصلة من محل والدي في الحريقة إلى بيتنا في شارع الأمين حيث تقوم والدتي بخياطتها، ثم أحملها في اليوم الثاني إلى محلنا في الحريقة، هذه هي طفولة الفلسطيني اللاجئ المشرد من وطنه، لم نعش الطفولة، بل كنا نسمع بها، نعمل نهاراً، وندرس ليلاً، وننجح في آخر العام.

أرغمتنا الحياة ان نُخلق كباراً، نعتصر القرش من كدنا وتعبنا وعرقنا المتصبب، لم نعرف الطفولة، و لم نعرف ملاعبها ولهوها ومرحها، لنأكل لقمة حلال كريمة. تطور والدي في عمله، وتحسنت أحوالنا المادية، فانتقلت العائلة للعيش في الشريبيشات (قرب الاطفائية القديمة). كنت أتابع الدراسة والعمل معاً.

فأنهيت الدراسة الابتدائية في معهد فلسطين، ثم اتممت الاعدادية في معهد القسطل، والثانوية في ثانوية الكواكبي عام ١٩٦٧م، التحقت بجامعة بيروت العربية، وتخرجت فيها حاملاً الإجازة في اللغة العربية وآدابها بدرجة جيد جداً عام ١٩٧١م. وخلال دراستي كنت أتابع المحاضرات في جامعة دمشق، فأخذت عن العلامة النحوي سعيد الأفغاني، والأديب أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمود الربداوي. وفي جامعة بيروت العربية عن الدكتور الأديب عمر فروخ وتاثرت به كثيراً، وعن الدكتورة زاهية قدورة، والدكتور اسعد علي، ومن اساتذتنا المصريين الدكتور الأديب النحوي عبد العزيز عتيق، والدكتور الناقد عبد المحسن بدر، وأخذت العبرية على الدكتور

يعقوب بكر، والتاريخ والمذاهب على الأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة.

التحقت في ١٩٧٢/١/٢ بمدرسة المشاة لأداء خدمة العلم، فتخرجت فيها ضابطاً، ومن هناك تم إلحاقي باللواء التسعين في الجيش العربي السوري قائداً لفصيلة مشاة، في شهر تشرين أول من عام ١٩٧٣ كانت معركة تحرير الجولان ، وخاضت قواتنا المسلحة المعركة، ووصلت إلى بحيرة طبريا، وحررت القسم الأكبر من الجولان، إلا أن ميزان المعركة اختل بسبب تفوق العدو في مجال السلاح المتطور، والدعم السريع الذي جاء من الولايات المتحدة الأمريكية. فاستطاع العدو احتلال بعض القرى، لكن قوات اللواء التسعين الذي اخدم ضمن قواته استطاعت دحر العدو ومنعه من التقدم، وكنت في مقدمة هذه القوات، إذ أوكلت اليّ القيادة ، قيادة سرية صواريخ (أر بي جي) لمنع العدو من التقدم في المنطقة الشمالية من الجبهة، قرب قرية حسنوة والمقروصة، واستطعنا الإستيلاء على آلية استطلاع معادية بما فيها من سلاح ومعدات بعد إعطابها ومنعها من أداء مهامها الاستطلاعية. وقد تعرضت خلال الحرب للمخاطر مرات عديدة فقد تعرضت للشهادة في المرة الأولى حينما كنت أقوم بمراقبة القصف الصهيوني لمواقعنا، والقصف المضاد من قواتنا، واشتد القصف بشكل عنيف، وكانت قذائف العدو تنفجر في مواقعنا بكثافة شديدة، وكان يساعدني في الإشراف ملازم جديد ألحق بي، هو بيبرس سمكوغ زرموق فقال لي أن الوضع لا يحتمل وأننا سنصاب في أي لحظة، فعلينا أن ننزل إلى الملجأ الإسمنتي الذي أقمناه، وهو عبارة عن نفق بطول ثلاث أمتار وعرض متر واحد، وبعمق مترين تحت الأرض، ومغطى بالتراب، وفوق التراب أحجار كبيرة لحماية الملجأ من التدمير المباشر، فاستجبت لطلبه، ودخلنا الملجأ، وما هي إلا لحظات حتى انفجرت قذيفة صاروخية في المكان الذي كنا فيه، وتطايرت الأحجار التي تعلو الملجأ، وانتشر التراب والغبار، ولم نعد نرى شيئاً من حولنا، أما المرة الثانية عندما كنت أرسل تقارير عن المعركة عن طريق جهاز لاسلكي محمول من قبل الجندي محمد جلالي، وكنا نحتمي بستار إسمنتي فإذا بقذيفة تسقط علينا، كان من نتيجتها ان أصيب الجندي جلالي بشظية دخلت كتفه الأيمن الملاصق لكتفي الأيسر، لكنه لم يشعر بإصابته بينما الدم يتدفق من كتفه من جراء تلك الشظية، فنبهته لما اصابه، وأصبت بإصابة صغيرة في يدي اليسرى، وحاجبي الأيمن. أما المرة الثالثة، فحدثت حينما غادرت الموقع للمبيت في بيتي في دمشق، وحينما عدت في صباح اليوم الثاني، وجدت الخيمة التي أنام فيها عادة، وقد حُرقت بالكامل، أما سريري فقد تحول إلى قطع متناثرة في كل مكان من جراء قذيفة مباشرة استهدفت الخيمة التي أنام فيها. وبعد انتهاء الحرب منحني القائد العام للجيش، رئيس الجمهورية المرحوم الفريق حافظ الاسد، وسام الشجاعة من الدرجة الأولى برقم ٧٣/٢٥٥٤٦ــ ١٩٧٤/٨/٣ حاشية اللواء (٩٠) ١٠٢١٦ تاريخ ١٩٧٤/١١/٣٠،

وبقيت في الخدمة العسكرية حتى شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٤م. وخلال وجودي في الخدمة العسكرية، تم تعييني مدرساً للغة العربية في وزارة التربية والتعليم إلا أنني قدمت استقالتي، وتفرغت للعمل التجاري والصناعي مع والدي. التحقت في عام ١٩٨٠م بدورة تحقيق المخطوطات التي أقامها معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية في بغداد، واستمرت الدورة لمدة ثلاثة أشهر، حصلت في نهايتها على شهادة في تحقيق المخطوطات من معهد المخطوطات العربية. اخذت خلالها جملة علوم عن اساتذة اجلاء منهم العلامة محمد بهجت الأثري، وسالم عبود الألوسي، والدكتور حسين محفوظ، وتحقيق المخطوطات عن الدكتور بشار عواد والاستاذ محمد أسامة النقشبندي.

تزوجت الآنسة منى صبحي الهندي عام ١٩٧٧ ، ورُزقت بعروب التي تخرجت في فرع الصيدلة، ومضر الذي تخرج في كلية الحقوق وميس في كلية التربية، ونوار في الصف التاسع.

بدأت القراءة مذ كنت صغيراً وكان موجهي الأول هو شقيقي حسين عمر حماده، فقد كان رائدي في الحض على القراءة، واقتناء الكتب القيمة النافعة، وخاصة التراثية والأدبية منها، وحينما بدأت مرحلة البحث والكتابة والتاليف كان معلمي في هذا المجال، فيقوم بقراءة ما أكتبه ويمحصه ويصححه ويصوبه.

وفي عضويته في:

- اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.
- الجمعية السورية لتاريخ العلوم.
- اتحاد المؤرخين العرب.
- غرفة تجارة دمشق.
- الغرفة الصناعية في دمشق.
- اتحاد الناشرين العرب.

- وفي المجال التجاري والصناعي:

- معمل البيرق لصناعة القمصان.
- الماسة الشرقية للتجارة بالبياضات.
- دار الوثائق للنشر.

ما زلت أمارس عملي التجاري والصناعي، واقوم بالبحث والتصنيف بعد انتهاء عملي ليلاً. عملت من أجل فلسطين في مجالات عديدة عملية ونظرية، ولا بد من عودة فلسطين عربية وبكل ذرة تراب وحبة رمل وقطرة ماء فيها.

أما الأمة العربية فلا بد من وحدتها ضمن إطار واحد، ولا سيما في مجال الدفاع والاقتصاد والخارجية.

الإسلام دين تجديد، جاء لنشر الحرية والعدل والمساواة والتسامح، دعا للتحرر من العصبية والقبلية والطائفية، والتوحيد محور العقيدة وهدفها الأول، ساوى بين الناس بغض النظر عن اللون والجنس، وفي العقوبات والحسنات لم يفرق بين ذكر وانثى، والعصمة في الاسلام لله وحده، ولا وسيط بين الخالق والمخلوق.

والحكمة التي اردّدها:

مَنْ لم يقنعه ما يكفيه

ما من شيء يكفيه

من مؤلفاتي:

- تاريخ المزة وآثارها. دمشق، دار قتيبة ١٩٨٣.
- تاريخ الصابئة المندائيين. طبعة أولى، دمشق، دار قتيبة ١٩٩٢.طبعة ثانية، دمشق ، دار الوثائق ٢٠٠٠.
- موسوعة أعلام فلسطين في ثمانية مجلدات.
- طبعة أولى، دمشق، دار قتيبة ١٩٨٥.
- طبعة ثانية، دمشق، دار الوثائق ٢٠٠٠.